

مصطفى الفيلاي

2019 - 1921



المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون



بالتعاون مع

مصطفى الفيلالي

5 جويلية 1921 - 20 جانفي 2019

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
«بيت الحكمة»

مصطفى الفيلاي: 1921-2019 / عمل جماعي، تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب
والفنون «بيت الحكمة» 2019 (تونس: مطبعة أوريبس)، 78 ص، 22 سم - مسفر
ر.د.م.ك: 7-194-49-9973-978

سحب من هذا الكتاب 100 نسخة في طبعته الأولى

© جميع الحقوق محفوظة
للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
«بيت الحكمة»

قرطاج، 2019

المُحتوى

الشهادات

- 9..... كلمة رئيس المجمع
عبد المجيد الشرفي
- 11..... في تأبين المرحوم مصطفى الفيلاي
محمد جنيان
- 14..... ذكريات مميزة مع مصطفى الفيلاي
عبد العزيز قاسم
- 16..... رجل فكر لا يهدأ له ضمير
أحمد ونيس
- 22..... سي مصطفى، وداعا ورحمة
الصادق بالعيد
- المُتثقف التونسي الأصيل بين الالتزام الفكري
والنشاط السياسي
- 25.....
علي حمريت
- 30..... رجل الحكمة والشرف
الطاهر بوسمة
- 32..... أبيات حُبّ ووفاء
عبد الرحمان الكبلوطي
- 35..... صور تذكارية

الشهادات

كلمة رئيس المجمع

عبد المجيد الشرفي

إن احتضان المجمع التونسي للعلوم والآداب - «بيت الحكمة» لأربعينية الفقيه الأستاذ مصطفى الفيلاي ليدل على أن هذا الرجل لم يكن فقط السياسي الذي ساهم مساهمة فعالة في بناء دولة الاستقلال فتحمل في أول حكومة بقيادة بورقيبة مسؤوليات وزارية في الزراعة والإعلام، ومسؤوليات إدارية في الإذاعة الوطنية وفي أملاك الدولة، وكان عضواً في المجلس التأسيسي، ثم دُعِيَ إلى إدارة الحزب الاشتراكي الدستوري في فترة مفصلية من تاريخ هذا الحزب، وإلى رئاسة اللجنة الاستشارية لاتحاد المغرب العربي، ولم يكن فقط كذلك المناضل في نطاق الاتحاد العام التونسي للشغل صحبة فرحات حشاد، وقد أودع عنده ابنه نور الدين في صبيحة اليوم الذي نالته فيه يد الغدر، ولا فقط الخبير الذي انتدبته المنظمة الدولية للشغل لإدارة المكتب الجهوي المغاربي بالجزائر، بل كان بالإضافة إلى ذلك من مؤسسي مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية، وعضواً في مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت والمنظمة العربية للعلوم الاقتصادية بالقاهرة، وشارك بالعضوية والدراسة في مشروع المستقبلات العربية البديلة في القاهرة بإشراف جامعة طوكيو لمنظمة الأمم المتحدة، مثلما ساهم في النشاط الدراسي لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومجمع الفقه الإسلامي في جدة.

إن غزارة هذه الأنشطة وتنوعها في مسيرة مصطفى الفيلاي المثقف الطويلة وجمعه فيها بين الاهتمامات العملية والمشاكل الفكرية النظرية، وتأليفه إلى جانب ذلك لمجموعة من الكتب التي يمتزج فيها العلم الواسع بالأدب الثري الممتع، وبخاصة حين يمزج الواقع بالخيال، والجد بالهزل، كل ذلك مع الأخلاق الرفيعة وطيب العشرة، هو ما أهله ليكون أحد الأعضاء

الخمسة الشرفيين بالمجمع. لم يكن الرجل ممّن يقبلون المساومة في حرية تفكيرهم أو في الإصداع بأرائهم، فلا يجد التملق إلى مواقفه مدخلا، ولو كانت هذه المواقف ضد التيار السائد، ولا ترضي صاحب السلطة والذين لا تهمهم سوى المحافظة على كراسيهم وامتيازاتهم.

لم يكن مصطفى الفيلاي رجعا حين كانت التقدمية تعني لبعضهم التخلي عن المقومات التي يراها ضرورية للمحافظة على هوية الشعب التونسي المسلم. كان يرى على العكس من ذلك أن هناك سبيلا إلى التوفيق بين عناصر الانتماء ومقتضيات التطور، لأنه كان يؤمن إيمانا راسخا بأن الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام هو الذي يهدي إلى ذاك السبيل. ولهذا انخرط بحماس في الملتقيات والندوات التي كانت في سبعينات القرن الماضي تبشّر بالصحة الإسلامية. وفي اعتقادنا أن حماسه ذاك منعه من الانتباه إلى المخاطر المنجرة عن التفاف الإسلاميين على هذا المفهوم، والمترتبة على التشجيع الأمريكي والغربي عموما لهذا التوجه. فقد كان يحسن الظن بمن يدعون أنهم في خدمة الإسلام، ولكنه لم يتردد في التنديد علنا بسلوكهم عندما وصلوا إلى الحكم وتمتعوا بحرية التحرك، وقد أضحى الإسلام عندهم وعند أشياعهم يعني إضعاف الدولة ولبس الخمار والقميص ورفع الرايات السود وأشباه هذه الرموز المنكرة. وما ذاك إلا لأنه رأى في أفعالهم تنكرا للقيم الأخلاقية والروحية النبيلة التي ما انفك يدافع عنها والتي تؤمن بالعمل أولا وآخرا، كما تبرهن على ذلك الصفحات الستمائة التي خصصها لهذه القيمة.

وإن احتضان «بيت الحكمة» لأربعينية الفقيد بمشاركة نخبة من خلانه وأصدقائه والمقدّرين لمسيرته النضالية والفكرية إنما هو اعتراف بفضل هذا الرجل الفذ الذي كان لي شخصا شرف الالتقاء به ومحاورته في مناسبات عديدة. وإنني باسم أعضاء المجمع أشكر كل الذين شاركوا في إعداد هذه الأربعينية وأخص بالذكر منهم السيد محمد الكيلاني، وأجدد تعازي إلى ابنه وابنتيه وأفراد أسرته الموسعة في ريف القيروان وفي كل موطن ترك فيه بصماته وأطيب الآثار.

في تأبين المرحوم مصطفى الفيلالي

محمد جنيفان

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

نقف ، اليوم ، خاشعين لله الذي يحيي ويميت ، مسلمين بقضائه وقدره ، لنودع جثمان رجل عزيز علينا ، كنا نناديه ، احتراما وتقديرا وودادا ، سيدي مصطفى .

سيدي مصطفى ، اليوم :

روح صعدت إلى بارئها ، ندعو الله أن تكون راضية مرضية . وجثمان مسجى ، سيتوارى عنا ، ويعود إلى الأرض ، التراب الذي خلقه الله منها .

وذكريات هي حصيلة ما رسخ في أنفسنا ، من العمر المديد الذي قدر الله للفقيد أن يقضيه بيننا . منا من تبدأ ذكرياته مع أستاذ بارز في الفلسفة والأدب العربي ، وشعلة متقدة من الفكر والإبداع وطول الباع ، في التربية والتعليم وصقل الكيان .

ومنا من ذكرياته ترتبط مع هذا الشاب الخطيب الفصيح القريب من العمال بالفكر والساعد ، في المنظمة الوطنية العتيدة ، الاتحاد العام التونسي للشغل ، بقيادة فرحات حشاد ورفاق التأسيس العظام .

وكثير منا ذكرياته تنهل من مراحل النضال الوطني ، قبيل الاستقلال وبعده ، وخاصة عند بدايات بناء الدولة التونسية الحديثة المنعقدة من نير الحماية الأجنبية ، ليستعيد فيها ، صورة أحد فرسان كوكبة الطليعة ، ذاك الفتى العبقري الذي يبدع في صياغة الفكر / البرنامج ، لمذهب الدولة ، في بعده الاقتصادي والاجتماعي ، والذي يقود ، برعاية مؤسس الجمهورية الحبيب بورقيبة ، شؤون الوزارة ، في الفلاحة ، و في الإعلام ، وفي أملاك الدولة ،

وشؤون إدارة الحزب الاشتراكي الدستوري، في مرحلة هامة من مراحل
أزمات النمو...

ولعل البعض منا، وهم الآن قليل، تعود ذكرياتهم، مع سيدي مصطفى،
إلى عضويته في المجلس التأسيسي الأول، ودوره في وضع أول دستور
للجمهورية التونسية.

ومن مختلف هذه الحقب والمراحل من الذكريات، سيظل حيا بيننا
سيدي مصطفى.

بطلته الودودة الحفية البهية، وبطهارة ضميره الوطني والإنساني،
وبصفاء قلبه المتقدم، دائما، لفعل الخير.

كما سيظل بيننا حيا ذلك الشموخ النادر في المواقف، عند الشدائد،
وذلك الاعتزاز بالرأي الذي يبلغ حدود الكبرياء / العبادة، عندما تكون
على أهل التكبر والعجرفة... وتلك الأريحية التي تهزه، كلما حانت ساعة
النجدة، فيهب عند الفزع، ولا تلقاه في مواطن الطمع.

وسيظل باقيا من سيدي مصطفى، حتى لمن لم يعرفه حيا، الثراء
الثقافي، والأناقة في الصوغ، والإبداع في التصوير، والطرافة في التناول،
عندما يقرؤون ما حبر قلمه، مما جاد به فكره وخياله، في مؤلفاته العديدة،
ومقالاته التي لا تكاد تحصى، ذلك التراث الذي يعكس بمختلف ألوانه،
اتساع آفاقه الفكرية والثقافية والسياسية.. وإخلاصه الدائم لخط سلوكي، في
الفكر والثقافة وثيق الانغراس في الحضارة العربية الإسلامية، والشخصية
المغاربية، والمنابع التونسية، نير الانفتاح على الحداثة الحكيمة، بأبعادها
الإنسانية والكونية، صارم الثبات على مقومات الهوية، حتى بين يدي الرئيس
الحبيب بورقيبة، تلك الصرامة المخلصة للرئيس، ولكن النقية من التسليم
الذليل بما كان بعضه يحوك في الصدر - ولمن يطلب شاهدا بل شواهد
على هذا، أقول: اقرأ كتاب المرحوم «موائد الانشراح».

سيدي مصطفى... وداعا لما غادرنا منك، ووفاء لما تركته، بيننا، وبيننا،
من عزيز الذكرى وصالح الأعمال.

وإنّا لتتجه إلى الله الرحمان الرحيم، الغفور الكريم، إياه داعين ، أن يغفر
ذنوبك، ويضاعف حسناتك، وينير قبرك، ويفتح لروحك جناته، ويرزقنا
جميعنا الصبر على الفراق، سواء كنا من الذرية الصالحة التي خلفت، أو
الأقارب والأصدقاء الذين يذكرونك بخير الخصال وطيب الفعال.

بسم الله الرحمان الرحيم: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم
يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا
متاع الغرور».

صدق الله العظيم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ذكريات مميزة مع مصطفى الفيلالي

عبد العزيز قاسم

مصطفى الفيلالي فكر وقاد ومتحرّك له إيمان قويّ بالقضايا التي انخرط فيها. كان دستوريا بورقيا ولكنه لم يكن على وفاق أعمى مع بورقية ويذكر الجميع أن إدارة الحزب بقيادته في بداية السبعينات كانت بشوشة متفتحة على الحوار الهادئ البناء.

بيني وبينه أوجه شبه ونقاط اختلاف. عمل مديعا براديو تونس ثم انقطع لإتمام تعليمه العالي ثم عاد غداة الإعلان عن الاستقلال الداخلي ليستلم إدارة الإذاعة شرعا في تونستها وعملت أشهرها تحت إدارته. كان يعجبني فيه تكوينه الكلاسيكي الثنائي اللغة وعلمانيته المعلنة وشهدت الإذاعة في مدته القصيرة جراءة فكرية وثقافية. وسرعان ما عينت وزيرا للفلاحة ثم للإرشاد بمعنى الإعلام. أنا أيضا عملت مديعا قبل إتمام تعليمي العالي ثم تسلمت مفاتيح الدار مثله. ولم يكن غائبا عن فكري الفورة الإعلامية التي جاء بها.

أهم نقطة خلاف بيني وبينه هو أنه أدار ظهره لعلمانيته في حين بقيت على موقفي من شعار «الإسلام هو الحل». وحصل بيني وبينه في هذا المجال مناوشة سريعة وحادة جعلت علاقتنا تتجمد. هاتفتني ذات يوم من أيام ربيع 1982 طالبا مني أن تتولى الإذاعة الإعلان عن ندوة إسلامية بمدينة القيروان خارج الأطر الموسمية. قلت: «سأستشير السيد الرئيس»، فقال كلمة غضب وأقفل التليفون. ولكن لم يمر وقت طويل قبل أن نلتقي وجها لوجه. كان ذلك عند ندوة تلفزيونية مباشرة بتنسيق مع جامعة الدول العربية، حضرها ثلة من المفكرين العرب وعلى رأسهم أمين عام الجامعة الأسبق محمود رياض المعروف باتجاهه القومي الناصري، وكان مصطفى الفيلالي هو المشارك التونسي الوحيد في الندوة. كنت في استقبال الضيوف وبالغت في الحفاوة

بمصطفى لتدفئة العلاقة. في تلك الندوة فوجئت بحسه العروبي المعمق ولم يكن ذلك متوقعا من قبل أحد قادة حزب طالما ناهض الفكر القومي. وأدت بمصطفى الفيلاي قناعاته بأن يصبح، إلى جانب صديقه خير الدين حسيب، أحد أمناء «مركز دراسات الوحدة العربية».

ثم ضمنا «نادي بشرى الخير» العريق قبيل الثورة وبعدها واستمعنا إليه محاضرا بليغا ومناقشا حصيفا. وكنت سعيدا بهذه اللقاءات الفكرية، إذ تبين لي تعلقه بروحية الإسلام، لا بقشوره. وبدا لنا موقفه الواضح من «الإسلاموية» باعتبارها أفقا مسدودا ومحركا للغرائز الدموية.

رجل فكر لا يهدأ له ضمير

أحمد ونيّس

نعرف مصطفى الفيلاي الدستوري الأصيل، المخلص لمبادئ حزبه والساهر على مُثله. وإن عُرف بنشاطه السياسي ضمن نخبة الزعماء؛ فإنه يختلف عنهم بعمله لا صُلب السياسة وإثما فوق السياسة. فهو المُلتزم بدستوريته المتينة الصافية.

ونعرفه أيضا بنضاله النقابي وبملازمته الزعيم فرحات حشاد. فالمؤسسة الشغيلة عنده وجه آخر للنضال في سبيل الوطن.
الأمة واحدة والنضال واحد.

ونعرف كذلك مصطفى الفيلاي مثقفا ملتزما وهو من الطلبة التونسيين القلائل الذين عايشوا في رحاب الصربون التيار الفلسفي الذي يجعل من الالتزام قيمة م كاملة للحرية والذي يعتبر الحياة سداجة بل عبثا دون الالتزام الذاتي ودون الاضطلاع بالمسؤولية المطلقة في سبيل الإنسان.

إنّ هذه المبادئ قد تمثلها مصطفى الفيلاي وعمل بها وبوحياها.

ولد مصطفى الفيلاي في قرية سيدي علي بن نصر الله قرب مدينة القيروان وهي تعرف بأهلها من بني تميم من الأصول العربية العريقة الذين استوطنوا المنطقة منذ الفتح العربي لإفريقية. وبقي متّصلا بتلك القرية وبأهلها فيهم شهد الكادحين المتعلقين بأرضهم وبصناعاتهم وبثقافة العمل إثباتا لحياتهم ووجودهم. ومنهم تعلّم الصبر والثبات زمن الجفاف والعسر وزمن الغيث واليسر. وبمعاشرتهم تأكد من بعد الارتباط بين الطبيعة والإنسان وبين الكد والإيمان.

وفي تلك الفترة انتمى في سن مبكرة إلى كُتّاب جدّه الشيخ محمد المثناني وحفظ القرآن وتعلّم الكتابة قبل أن يلتحق بمدرسة القرية ومنها إلى المدرسة الصادقية بالعاصمة في عائلة خاله القاضي محمد الفضيلي.

وكانت المدرسة الصادقية تضمّ خيرة الأساتذة الشبان المتصلّعين بالثقافتين العربيّة والفرنسيّة وكذلك نخبة من شيوخ الزيتونة إلى جانب الأساتذة المتميّزين من الفرنسيين المتخصّصين في الآداب وفي العلوم العصرية. فلتقي الروافد من المعارف وتحصل جدواها في صدور هؤلاء المتقبلين من الصادقين بهذا الغداء المشبع بحب الوطن وبتاريخه المجيد فترسخ أقدامهم في حضارتهم مع التوق إلى التفتح ومواكبة العصر بما فيه من تقدّم علمي وأنوار معرفيّة تفتّق العقول وتغذي النفوس بمشاعر تأصيل الذات والدفاع عن الشخصية الوطنية والهويّة التونسيّة.

وبعد إحراز شهادتي ختم الدروس والباكالوريا، تبدأ رحلة الطلب في جامعة الصربون وقبل ذلك، أثناء سنوات الحرب عمل بالإذاعة التونسية: حيناً مديعاً وحيناً مؤلفاً. يقول توفيق بكار في مقدمته لرواية مصطفى الفيلاي «مانعة، من أيام قرية الجبل»، «سمعت له في شبابي على الأمواج تمثيلية له». والبطل طيار يحادث رفيقة له عن المغامر في الأجواء، ما يلقي وينشد، ولم يكن لنا طيران في ذلك الزمان ولا نوتي ولا مُصَيِّفة».

ويكتب كذلك في مجلّة «المباحث» ويمضي مقالاته باسم «سامي» إذا حدّث عن نفسه أو حاور «نيتشه»، وباسم «الورّاق» إذا قدّم كتاباً لـ Aldous Huxley أو لـ Bernard Shaw. يقول توفيق بكار: «فزاد على ثقافته الأم ما نال، وهو غير يسير، من ثقافات الغرب، ومزج بالأصيل الدّخيل مزجاً خلاقاً، تغذوه به الذاتُ فتقوى».

وعلى صفحات مجلّة «المباحث» يلتقي بأساتذته في المدرسة الصادقية محمود المسعدي والصادق مازيغ وعلي البلهوان والشيخ الفاضل بن عاشور ويلتقي بهم كذلك في سنوات التعليم بمعهد Carnot وبالصادقية

من جديد إلى حلول سنوات الاستقلال الداخلي، فيعود مصطفى الفيلاي إلى دار الإذاعة مسؤولاً على قطاع الإعلام.

وفي تقاطع المهمات والمسؤوليات تبرز ثلاث محطات أساسية:

1 - بحكم انتمائه إلى اللجنة الاقتصادية التي كوّنّها اتحاد الشغل والتي كانت تجمع الرعيل الأول من الشباب التونسي المتكوّن في الاقتصاد، دُعِيَ مصطفى الفيلاي إلى عرض مشروع إصلاح الاقتصاد الوطني أمام مؤتمر الحزب الدستوري في صفاقس في نوفمبر 1955، لما كانت تونس تتأهب للاستقلال. فعرض على المؤتمر الخيارات الضرورية للنهوض بالاقتصاد والشروع في سياسة جذرية تؤسس لوضع اقتصاد وطني حديث قائم أساساً على تنمية الثروات الذاتية.

وعلى هذا الأساس سُمّي مصطفى الفيلاي وزيراً للفلاحة في أول حكومة الاستقلال في أبريل 1956. واتّسعت مهامه إلى عضوية المجلس التأسيسي وإلى وزارة الإعلام وتواصلت في عدّة مؤسسات اقتصادية سامية.

2 - والمحطة الثانية كانت إدارة مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية التابعة للجامعة التونسية وهي التي استغرقت خمس سنوات ثرية فاتحة لتأسيس ودعم البحوث الاجتماعية والإنسانية المكّملة لسياسة التعليم العالي في تونس. ومن ذلك العهد لازم الأستاذ مصطفى الفيلاي سنة البحث والنقد والنشر دون انقطاع.

ومن أبرز مؤلفاته «مجتمع العمل» الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية. وهو اجتهاد فريد يُضاف إلى النظريات الاجتماعية والفلسفية الماركسية والليبرالية حيث يركّز على المجتمع العربي وعلى الثقافة الإسلامية لتحديد «ماهية العمل» و«بنية العمل» و«ظروف العمل» و«اجتماعية العمل»، فيضع العمل في نطاق حضاري تاريخي ويدرس «منزلة العمل في الفكر الإسلامي» ويُفصّله إلى «العمل حقّ وواجب» و«العمل عبادة ومصلحة وإيمان» و«العمل عقد ومسؤولية» فيكون أساس النظام

المجتمعي المنقذ من التخلف والتبعية وركيزة النمو الاقتصادي وازدهار العمران.

ويتوسّع في تأليف ثان في إثبات هذه المبادئ وهو «الإسلام والنظام الاقتصادي الدولي الجديد».

وتبقي قضية العمل ركيزة محورية في انشغالاته السياسية حيث دعى ثلّة من المفكرين والباحثين بعد الثورة الديمقراطية في تونس إلى السعي إلى وضع خطة متكاملة للخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة تقوم على تعميم وتوجيه العمل في سبيل خلق الثورة وتجاوز التضخّم والتآكل.

3 - والمحطة الثالثة هي انصهاره في مسيرة المغرب العربي الكبير، بدءاً بوظيفة مدير المكتب المغربي الإقليمي لمنظمة العمل الدولية بالجزائر فتحوّلت زاوية المشاهدة والتحليل من منطلق الأرضية التونسية إلى الساحة المغاربية العريضة بمفارقاتها وتفاوت الخيارات المنهجية وتباين المرجعيات الفكرية مع تشابه المجتمعات الإنسانية في عمقها وفي واقعها وفي تطلّعاتها وآمالها.

ولمّا انتقل بعد ذلك إلى اللجنة الاستشارية المغاربية وكانت قد انطلقت في نشاطها منذ ما يقارب العشر سنوات، عمل على تعزيز البنية الصلبة المشتركة والتكامل الاقتصادي الضروري لقيام المشاريع الكبرى وتوحيد المعاملات مع الخارج، خصوصاً في المستوردات، سعياً لتخفيف الكلفة على الجميع.

نجد في كتاب مصطفى الفيلاي «المغرب العربي نداء المستقبل» الصادر في تونس سنة 1988 عرضاً دقيقاً لأركان اللجنة ونشاطها ومنهجيتها فنذكر لدى الخبراء والممثلين عن الدول قوة الإيمان برسالتهم المشتركة، وفي المقابل نذكر لدى أصحاب القرار تباين الرؤى كلّما دقت ساعة القرار الفصل لإطلاق المشاريع أو تحديد المنظومة المغاربية وصلاحيات أعضائها وارتباطها بالمجموعات الاقتصادية الأخرى. يقول المؤلف:

«ليس من الصراحة مفرّ ولا من الإقرار بالحقّ بُدّ والصراحة تملي بالإقرار بأنّ تجربة البناء المغربي المشترك على امتداد رُبع قرن هي محاولة فاشلة».

ونتساءل هل تطوّرت المقاربة من عهد اللجنة الاستشارية إلى عهد معاهدة مراكش؟ مهما تحوّلت الأوضاع في المحيط الأوروبي والعالمي ومهما تجلّت قضيّة المرجعيّات الفكرية والإيديولوجيّة، يبقى مصير المغرب الكبير عالقا بأصحاب القرار الحقيقيين.

يحدّثنا مصطفى الفيلاي عن شرعيّة صاحب القرار فهي تكمن عنده في تصوّر المستقبل وفي فتح الأمل أمام الشعوب. ليس الاستقلال غاية الغايات وإنّما هو السبيل لبناء المستقبل وزرع الأمل الفسيح. وفي شعوبنا لا شيء يعلو على مشروع المغرب الكبير، فهو نداء المستقبل وهو الأمل.

ويقدم مصطفى الفيلاي في كتابه حصيلة أعمال اللّجنة الاستشارية وقيم الحجّة على مشروعيّة المغرب العربي.

يكفي أن يشير مجلس وزراء الاقتصاد إلى مشروع محدّد، قطاعي أو شامل، حتّى يتناوله الخبراء ويضعوا الدراسة الضافية المتكاملة القابلة للإنجاز فتراكم الدراسات في عديد الميادين القطاعيّة والشاملة تصل إلى 48 دراسة تمثّل رصيذا متينا لتحقيق الاقتصاد المندمج على أرض الواقع. أليس هذا هو باب المستقبل؟ أليس هو الأمل؟.

ونسأل الأستاذ مصطفى الفيلاي: «متى يستيقظ المغرب النائم في الدفاتير؟» فيجيب: «هي أزمة ثقافيّة إذا كان الزعماء يقيسون بنفس المقاييس الواقع الوطني الإقليمي وكذلك المحيط الدولي. وإذا هم يوجّهون الشعوب إلى غايات تتلاقى مقاصدها فإنّهم يهتدون بطبيعتهم إلى بناء قوّة موحّدة يرتاحون إليها ويطمئنون بها على مستقبل شعوبهم».

هكذا كانت الصلة بين الزعماء في عهد الحبيب بورقيبة وعلال الفاسي. وبقدر ما تتباين الرّؤى وتتفجّر الغايات والمقاصد فلا تؤثر الدراسات

الموضوعية ولا خبرة الخبراء مهما كانت قوة الحجّة الاقتصادية أو الإستراتيجية. فالقضية ثقافية أساسا.

أما عودة مصطفى الفيلاي إلى الأدب، فهي تعبير عن الحيرة العميقة، حيرة المثقف الملتزم. ذلك أن رجل الفكر لا يهدأ له ضمير.

والضمير الدستوري الأصيل لا يستسلم. وهو الدستوري الذي يتميز عن السياسيين المُتمهّنين والدّغمائيين بالخيال السياسي الذي به يترفع عن الواقع فيرقى تارة إلى حرية المبدع والأديب وتارة أخرى إلى صراع المفكر الملتزم.

هكذا تكون مساهمته الأدبية نضالا بالقلم ومساهمته السياسية درسا في الحرية والاجتهاد.

سي مصطفى، وداعا ورحمة...

الصادق بالعيد

في 20 جانفي 2019، ودّعنا في ذمة الله المغفور له، الأستاذ مصطفى الفيلاي، واحد من أبناء الوطن البررة المخلصين والذين خدموا هذه البلاد طيلة حياتهم بكل صدق وتفان وفي كنف التستر والتواضع الكاملين؛

في ما كان يتجاوز نصف القرن من نشاطه السياسي، كرّس المرحوم كل جهوده في خوض معركة الاستقلال ومعركة إرساء الدولة التونسية الفتية ومعركة تأليف لحمة وطنية متماسكة وقوية تؤمن بأن مصيرها وتقدمها لن يتحققا إلا بلم الشّتات إلى أمة موحدة ومندمجة تجتد كل قواها في سبيل تحقيق تطوير اقتصادها وتقدّمه والنهوض بشعبها إلى مستوى الحضارة والحداثة الذي بلغته الأمم المتقدمة؛ فكان لهذا الهدف السامي إملاءاته السياسية على نشاط المرحوم في تلك الفترة المتقلبة والحرّجة؛ فخاض المرحوم بكل جرأة وبكل تبصّر المعركة المصيرية التي تلت الأيام الأولى من نيل الاستقلال، وكذلك تحمل المسؤوليات السياسية من الدرجة الأعلى؛

وإن المرحوم لم يفرد القطاع السياسي بجهوده وأنشطته؛ فإنه خصص القطاع الاجتماعي والنقابي بقسط وافر من عمله، وتحمل مهمات ومسؤوليات كبيرة في العمل النقابي، مع كل ما ينتج عن ذلك من تضحيات والتزامات في سبيل الدفاع عن مصالح الطبقة الشغيلة، خاصة في تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة؛ وفي الحقيقة، يمكن القول بأن المرحوم لم يقلل من اعتنائه بمشاكل الطبقة الشغيلة، حتى من بعد انتهاء عمله النقابي في إطار الاتحاد العام التونسي للشغل؛ فكثيرا ما كان يتردد على نادي النقابيين الموجود في مكان غير بعيد عن نهج بورقيبة في تونس العاصمة؛ وزيادة على ذلك، فإنه تحمل مهمات نقابية دولية توجت تجربته العمالية الكبيرة في

بلاده، فانتدبته منظمة العمل الدولية وكلفته بالقيام بدراسات في العديد من المشاكل الاجتماعية والنقابية الدولية؛

وهنا، وجه آخر للعمل السياسي للمرحوم، لا يمكن نسيانه: فمئذ الأيام الأولى لاندلاع التحركات الاجتماعية في 2010/2011 والتقلبات الخطيرة التي عرفتتها تلك الفترة، بادر المرحوم، بالرغم من كبر سنه، بالاعتناء اليومي بالتطورات المرتبكة وكل التناقضات والمآسي التي اجتاحت البلاد والتي لا نرى لتأزمها حدا ولا مخرجا؛ وكان لي الشرف، في هذه الفترة، بأن عملت بشكل مكثف مع المرحوم وتحت إمرته في العديد من المناسبات والكثير من التطورات التي مرت بها البلاد، فلمست في كل تلك المواقف جدية التحاليل التي كان المرحوم يقدمها والتوجهات التي كان، بفضل تجربته السياسية والاجتماعية الواسعة، يسطرها بكل عقلانية وبكل حكمة؛ وفي هذا الإطار، كان المرحوم، الذي كان قوي الإيمان، متحمسا لنصرة الأهداف السامية للثورة وكان يحذر دوما من مخاطر بعض التيارات المذهبية المتسترة بقناع الدفاع عن الدين الإسلامي، تعمل على نشر الإيديولوجيات المتطرفة والظلامية؛ وكان يدافع بكل قوة على التراث التقدمي والحداثي العميق الذي كان، في فترة شبابه، من بين الذين أسهموا في تكوينه وإثرائه والتعريف به ونشره في كامل البلاد؛

وأخرى، لا ننساها كلما تكلمنا عن المرحوم وعن أنشطته السياسية: إنه كان، طوال عمله السياسي، الناشط الوفي في خدمة الفكرة (المغربية) التي كان يؤمن بها بكل قوة وأسهم في التعريف بها وبمحاسنها وحتى بضرورة تبنيها من طرف القادة السياسيين وحملهم على العمل على إنجازها؛ فهو لم يسهم فقط في التعريف بها من خلال الابتكارات المؤسسية مثل (معهد الدراسات المغربية)، الذي كان له ضلع هام في إنشائه وفي تنشيطه لمدة طويلة، بل إنه نشر العديد من المقالات الصحفية والإسهامات الأكاديمية لتحسيس العامة والخاصة لأهمية تلك الفكرة ولربط حظ الشعوب المغربية في التقدم والنمو الاقتصادي والاجتماعي بفكرة خلق الفضاء المغربي الموحد، على غرار ما حصل في تجمعات كبيرة في الجوار

المغاربي وغيره؛ ونذكر على سبيل المثال، لا الحصر، تلك الفكرة الألمعية التي قدمها لتسهيل تبني المشروع المغاربي من طرف السياسيين وأصحاب القرار، وهي التي تدور لا حول فكرة محاسن الإدماج المغاربي، وإنما حول فكرة (تكلفة اللامغرب)، وهي التي من شأنها أن تحسس الرأي العام المغاربي لأهمية هذا المشروع الحيوي وأن تضع أصحاب القرار المغاربة أمام مسؤولياتهم الكبيرة إزاء مواطنيهم.

رحم الله هذه الشخصية الفذة وهذا المواطن الكريم ورزق أهله وذويه جميل الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

المُثَقَّف التّونسي الأصيل

بين الالتزام الفكري والنشاط السياسي

علي حمريّت

عاش مصطفى الفيلاّلي في الوسط الرّيفي التّونسي الأصيل، في وسط عربي يعتزّ بأرومته ولغته وعاداته وتقاليده وقد احتضنه جدّه الشّيخ المثناني، مؤدّب القرية وقاضيها عندما تحدث الخصومات بين الفلّاحين في خلافاتهم من أجل المرعى أو الشقاق الأسري. فانتفى ذلك الطّفل اليافع في سنّ مبكرة إلى كتاب جدّه وحفظ القرآن وتعلّم الكتابة قبل أن يلتحق بمدرسة القرية الابتدائية ومنها إلى فرع المدرسة الصّادقية حيث انتقل إلى العاصمة في عائلة خاله القاضي الفُضيلي. وتبدأ مرحلة التعليم الثانوي بالصّادقية بنجاح، في هذه المؤسسة العريقة التي أسّسها المصلح الكبير خير الدين سنة 1875، وقد ظلّت هذه «المدرسة المَعلم» تضطلع بدور قلّ أن شهد التاريخ مدرسة قامت بمثل ما قامت به الصّادقية في مسيرتها لذلك استحقّت الشّاء الجميل، وقد سمّاها الشّيخ المصلح سالم بو حاجب «المحلّ الأكرم» ونعتها الشّيخ محمد الفاضل بن عاشور بـ «المنار الرّفيح» وقال فيها الرّعيم الحبيب بورقيبة: «الصّادقية مؤثّل صباي ومورد تربيتي وثقافتني الذي نهلت منه وتغذّيت به». ولعلّ أحسن تعريف لمزايا هذه المؤسسة التربويّة العريقة ما جاء على لسان أحد أبنائها، معبّرا عن الرّوح التي تميّز الصّادقين على امتداد السنين الطويلة، وكان وزيرا للثقافة، فقال: «لقد علّمتني الصّادقية أنّ الإنسان كالشجرة كلّما تأصّلت جذوره في موروثه تمتدّ أغصانه نحو الأفق الأرحب في المُقبل، بهذه التّعادلية انطلقنا في دروب الحياة نراوح بين قراءة القرآن ومطالعة مسرحيات «شكسبير» و«بريخت» فلا يزيدنا ذلك إلا اعتزازا بالذات وتسامحا مع الآخر وظللنا نرى في الاختلاف ثراء يغنيننا...».

وتقلّب الأستاذ مصطفى الفيلاي في وظائف عدّة أكسبته خبرة وكان فيها في المستوى الرفيع من المسؤوليةّ مستجيباً لنداء الضمير والإخلاص في خدمة الوطن.

وقد عُرف بنشاطه الفياض وذكائه في حسن أداء مهامّه وكان خير معين لكلّ من عاشرهم بروح يسودها حسنُ المعاشرة دون إهمال الجدوى أو إغفال الأهداف المنشودة في كلّ ما يقوم به.

ولسائل أن يسأل هل ترك مصطفى الفيلاي الأدب ونتاجاته وتهويماته إلى عالم السياسة والمسؤوليات الإدارية سواء كانت في تونس أو خارجها؟

يجيب توفيق بكار في مقدّمة «مانعة»: «وما رأى أن يعود إلى الآداب حادت به عنها دراسة الاقتصاد، في المراكز العلميّة، فظلّ يبحث في مسأله، ويؤلّف التّأليف...» ومن أبرزها كتابه «مجتمع العمل» الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربيّة. وفي هذا التّأليف الهام في أبعاده العميقة يصبح مصطفى الفيلاي منظراً للعمل فهو سبيل الخلاص بمفهومه العقائدي وكذلك الصّوفي.

إنّه المنجى الأوحّد من التّخلف والتبعيّة ويكفي استعراض بعض عناوين فصوله لتتأكد من مقاصد كاتبه الاجتماعيّة والسياسية وكذلك الفلسفيّة في أبعاده الأخلاقيّة خاصّة.

يبدأ بتجديد ماهيّة العمل، في فصله الثاني تليه بيئة العمل وظروف العمل واجتماعية العمل والعمل والتنمية، ثمّ يضع العمل في نطاق حضاريّ تاريخي في القسم الثاني تحت عنوان: «منزلة العمل في الفكر الإسلاميّ ويفصّله إلى «العمل حقّ وواجب والعمل عبادة ومصالحة وإيمان والعمل عقد ومسؤولية» ويصل بالتدرّج إلى الحديث عن النظام في بناء العلاقات الاجتماعيّة وفي ضبط نوعيّة الروابط التي تكون من نتائجها الإيجابية النموّ الاقتصادي وازدهار العمران في كنف العدل والحرية.

ينزل مصطفى الفيلاي مفهوم العمل في إطار الفكر الإسلامي دون اللجوء إلى النظريات الفلسفية الخارجة عن حضارته وأسس ثقافته الأصيلة وتجد فيها معينا زكيا يمكن أن تكون أسسا ودعائم لاقتصاد عصري متفتح. ويتوسع في تأليف ثان لإثبات هذه المبادئ هو «الإسلام والنظام الدولي الجديد». وفيه تأكيد لمشروعية نظريته الاقتصادية في بناء التنمية والتطور المجتمعي في تونس ورصد آفاق المستقبل والتفتح على العالم المتطور.

وقد مهد لذلك بأبحاث سابقة عن «المغرب العربي ونداء المستقبل ودراسات عن توطين العشائر البدوية في المملكة السعودية وفي شمال إفريقيا وعن الصحوة الدينية والتحديات الاقتصادية والاجتماعية؟».

لنذكر قول أبي تمام:

نَقْلُ فُوَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى

مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

وحبيب مصطفى الفيلاي الأول إنما هو الأدب كزمره أصدقائه من أسرة مجلة المباحث. كما يبرز أيضا دور المربي الذي اضطلع به في كتابه الأدبي الثاني «موائد الانشراح». وقد قدمه الأستاذ البشير بن سلامة يوم الخميس 14 أكتوبر 2010 على منبر جمعية قدماء المدرسة الصادقية وقد أثنى في خلاصة قوله على خصال مصطفى الفيلاي المعرفية التي شملت الثقافة والسياسة والاقتصاد واكتسب تجربة فريدة جاد بثمرتها في هذا بمقتضى تقلبه في عديد المناصب في الدولة التونسية الجديدة والمتصفة بروح الحوار والتنوير وحب الاختلاف الذي هو رديف الفكر التقدمي للحركة الوطنية وفكر الإصلاح.

مصطفى الفيلاي لم يتعد قط عن مهبة السياسة وخوض غمارها كلما دعاه الشأن الوطني لذلك. وبقي معنى الروح الدستورية منغرسا فيه، فالنضال حركية دائبة ودائمة أولا يكون ذلك أن محطة الاستقلال ليست هي غاية الغايات، فأمر الالتزام السياسي خدمة للوطن بقي عند مصطفى

الفيلاي متواصلا بعد الاستقلال كبقية الدستوريين الحقيقيين، وقد كانوا فعلا في صلب السياسة ثم أصبحوا فوق السياسة.

ومن الطريف في مسيرته وقد عرف بنشاطه السياسي والتزامه بدستوريته أنه بقي في كل المناصب والمسؤوليات التي تقلب فيها أسمى من أن يسيطر عليه المنصب. وقد عرف من جانب آخر بنشاطه في الاتحاد التونسي للشغل وملازمته لزعيمة الفدّ فرحات حشاد. والمؤسسة الشغيلة كانت عنده بكل اقتناع وجها ثانيا للوطنية والتفاني في خدمتها. فالأمة واحدة في نظره والنضال واحد، والعمل يكون دائما بمقتضى الوفاء والتجرد. وهذه الروح النضالية التي لا تقيم الحسابات في سبيل الوطن في المرحلة الحاسمة التي فيها وقع القضاء على الاستعمار. وإن هذه المبادئ المثلى للمناضل السياسي قد تمثلها مصطفى الفيلاي وعمل بها وبوحياها وكان ديدنه البقاء وقيا لمبادئ حزبه ولسلوك أخلاقي تربى عليه منذ نشأته الأولى بقريته الفلاحية العريقة.

شخصية مصطفى الفيلاي تبقى متوقفة في نضالها بهذا التميز، فالمرء هو بحق ابن بيئته سبكت شخصيته تلك القرية العربية الأصيلة وعركت ذاته بما لها من قدرة عجيبة في نحت نفس طواعة للسمو في إنسانيتها وثابة بمطامحها الخيرة في نفع الآخرين والتطوع التلقائي في خدمتهم.

إنه يمثل المثقف التونسي المعترف بثقافته العربية الأصيلة وقد زاد على هذه الثقافة الأساسية ما نال عن طريق الدراسة العصرية في بيئته الثانية بالصداقية والثالثة بالصبوب، فكان هذا المزج بين ثقافتين فائق النتائج لبناء هذه الشخصية القوية البناء السليمة العناصر فمكنت الأستاذ مصطفى الفيلاي من تحقيق ما رب قل أن يحققها من سواه من المناضلين.

وقد أنجز في مسيرته الموقفة ما نفع أبناء وطنه وكان في هذا المسار يتعظ بالحكمة ويتوخى سبل الاعتدال وسمو الأخلاق. وقد عبّر في ما كتب على مثاليته التي قل أن تتوفر لأصحاب السياسة الذين توخّوا سبل المواردية والحسابات الضيقة، وبقي الأستاذ مصطفى الفيلاي التونسي الغيور على

وطنه وهو دائما عند الجميع الأخ والصديق والمثقف والمربي الذي تتلمذ عليه كلّ تونسي بصفة مباشرة أو غير مباشرة. وإليه منّا كلّ التقدير والثناء والاعتراف بالجميل.

وإذ غادرنا ونحن اليوم في أشدّ الحاجة إلى إرشاده ونصحه وقد ترك فراغا يستحيل ملؤه وأسى لا سبيل لمحوه.

رجل الحكمة والشرف

الطاهر بوسمة

في صائفة 2013، دخلت تونس في دوامة من الخصام السياسي عطل سير عمل مؤسساتها وأصبح مصيرها قابلا لكل الاحتمالات!

هذا مجلس تأسيسي معطل، وهذه حكومة تتخبّط ومعارضة تصعد، ولم يبق للعقل ولا للمصلحة مكان، كانت كالسفينة التي تتقاذفها الأمواج ولا تدري أين المصير حتى ظهرت مبادرة رباعية أدارها اتحاد الشغل مع أطراف اجتماعية ومهنية أخرى هي اتحاد الأعراف وهيئة المحامين ورابطة حقوق الإنسان، تمكن هذا الرباعي من جمع الفرقاء حول خريطة طريق اتفقت عليها الأطراف المتنازعة وأمضيت في حفل مشهود.

كان من بنود تلك الخريطة تشكيل حكومة كفاءات غير متحزبة، وطال النقاش لأن كل شخصيّة يعرض اسمها تلاقي معارضة ولكل مبرراته وأسبابه!

ذات يوم تمّ الاهتداء إلى السيد مصطفى الفيلاي الذي توفرت فيه شروط الكفاءة والاستقلالية، تمنّع في البداية ثمّ قبل الرسالة من باب فرض العين، وكانت تونس وقتها على شفا حفرة من الفتنة.

أعلن الخبر في وسائل الاتصال الاجتماعي في ليلة الجمعة، لم أتصل به إلا صباح يوم الغد هاتفياً فأكد لي الخبر، كان ذلك على الساعة الثامنة والنصف صباحاً، هنّأته بالقبول وتمنيت له التوفيق.

رأيت في قبوله للمهمّة بالرغم من الصعوبات التي تحيط بها تضحية منه في خدمة تونس إذ بذلك سوف تتوقف المعارك بين الفرقاء ويشع الاطمئنان في النفوس.

أعرف أنّ سنّه لا تسمح لي بتحمّل مثل تلك الأعباء ولكنني منيت النفس بأنّه لو استعان بفريق من الكفاءات فسوف يجنب تونس مخاطر كانت تتهدّدها، لكنّه بعد نصف ساعة من اتّصالنا قرّر الاعتذار عن المهمّة، تأسّفت لتسرّعه ولو أنّ الآراء وقتها كانت متباينة.

قرّرت في صباح يوم السبت الموالي أن أتعرّف على الأسباب، فتحوّلت إلى رادس أين يقطن فتأكّدت أنّه كان محقّاً لما قبل ومحقّاً لما اعتذر.

كان واضحاً وصادقاً مع نفسه وفضّل الاعتذار لأنّه قدر أنّ ثقل المهمّة ودقّتها لا تتناسب مع سنّه، وأنّه قرّر مواصلة خدمة بلده بما كان في استطاعته، أمّا وقد تجاوز التسعين من العمر ومن الأمانة عدم المجازفة بذلك.

تأكّدت يومها من زهد ذلك الرّجل، فمن منّا يقدر على رفض مثل تلك المهمّة ويتخلّى على ذلك الشّرف، إنّها رئاسة الحكومة التي جعل منها الدّستور الصغير قطب الحكم ومركز السلطة بعدما كانت لا تساوي خطة معتمد أول في زمن الدكتاتورية.

تذكّرت ذلك بعدما رأيت الشيوخ يتزاحمون اليوم على الحكم ووصل بالبعض منهم إلى تبديد ما كان له من الوجاهة وأصبحت سيرته تلك في الأفواه.

أقول له شكراً يا سي مصطفى على حكمتك ويا ليتك تعطي من حكمتك تلك لمن هم في سنّك أو أقلّ من سنّك بقليل وتبدأ بي.

(مذكّرات وال 2015)

أبيات حُبِّ ووفاء

شعر: عبد الرحمان الكبلوطي

قد عاش (الفيلالي) أُلْمَنَّم مُصْطَفَى
سَيْرًا عَلَى نَهْجِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى
رَجُلِ السِّيَاسَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْحِجَابِ
رَمَزِ الشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْإِبَا
مِنْ قَيْرَوَانِهِ رَحْلَةً بَدَأَتْ تَلِي
هَذَا الصَّادِقِيَّةِ ضَمِنَ خِلَانِ الصِّفَا
وَأَتَى فَرَنْسَا حَيْثُ أَزْقَى مُنْتَدَى
أَدَبٍ وَفِلَسْفَةٍ وَعِلْمٍ قَدْ نَمَا
وِلَا أَرْضِ تُونِسَ عَادَ خَيْرَ مُنَاضِلِ
ضِدَّ العُزَاةِ، مَعَ الرَّفَاقِ بِلَا وَنَا
مَعَهُمْ تَحَرَّرَتِ البِلَادُ، وَشَيِّدُوا
أَزْكَانَهَا، وَتَحَمَّلُوا وِزْرَ البِنَا
قَدْ كَانَ مِمَّنْ أَنْقَذُوا هَذَا الحَمَى
مِنْ فِتْنَةٍ مُشْعُورَةٍ حَلَّتْ بِنَا
وَأَبَانَ عَنْ فِكْرِ حَصِيفِ ثَاقِبِ
فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ هُنَالِكَ أَوْ هُنَا:
هَلْ تَذْكُرُونَ خِصَالَهُ فِي (مَجْلِسِ)
بِهِ أَنْشَأَ (الدُّسْتُورَ) أَوَّلَ مَا بَدَأَ؟
وَكَذَلِكَ فِي الحِزْبِ الجَدِيدِ أَدَارَهُ
حُرًّا يُجَاهِرُ بِالمَوَاقِفِ عَارِفَا

كَانَ الْجَسُورَ وَفِي الْحَوَارِ مُجَادِلًا
وَتَرَاهُ بِالْإِقْنَاعِ يَغْدُو مُنْصِيفًا
وَالْمَغْرِبَ الْعَرَبِيَّ هَاجِسَ فِكْرِهِ
يَدْعُو إِلَى تَأْسِيسِهِ رَغْمَ الْجَفَا.
هَلْ تُنْكِرُونَ عُرُوبَةَ فِي سَعْيِهِ
وَمَعَ الْخِطَابِ كَلَامُهُ يَا مَا حَالًا!
فَهُوَ الْأَدِيبُ وَ(أُمُّ حَامِدٌ) ⁽¹⁾ شَاهِدٌ
وَ(مَوَائِدٌ لِلْأَنْشِرَاحِ) ⁽²⁾ مَلَاذُنَا
فِيهَا تَغْذَى مِنْ جِهَادِ زَعِيمِنَا
وَأَحَبُّ لِلْخِضْرَاءِ تَحْقِيقَ الْمُنَى
وَلَهُ الدَّرَاسَاتُ الْعَمِيقَةُ صَاغَهَا
كُتُبًا بَدَأَ فِيهَا حَكِيمًا عَارِفًا
سَنَدًا بَقِيَ لِلْعَامِلِينَ بِسَاعِدِ
وَبِفِكْرِهِمْ، حَتَّى يَطِيبَ لَهُمْ جَنَى
وَأَبَا لِي—(رَادَسَ) كَمْ أَحَبَّ هِضَابَهَا
وَ الْبَحْرَ فِيهَا وَالْمِرَاحَ وَمَا اِخْتَوَى
وَأَرَادَ سَاكِنَهَا سَعِيدًا هَانِيًا
لِتُظِلَّ مُنْتَزَعًا وَرُكْنًا آمِنًا
وَلِذَاكَ نُحْيِي لِلْمُنَاضِلِ (مُصْطَفَى)
ذِكْرِي اعْتِرَافًا بِالْجَمِيلِ مَعَ الْوَفَا

عبد الرحمان الكبُلوطي

الزَّهْرَاءُ 2019 / 01 / 22

1 - أم حَامِد: رواية نشرها الفقيده سنة 2015.

2 - موائد الانشراح: رواية نشرتها سنة 2010 وَشَّحَّ غِلاَفَهَا بِصُورَةِ الزَّعِيمِ الرَّاحِلِ الْحَبِيبِ بُورْقِيَّة.

صور تزكاريّة

تعمیر کا نام ہے



مصطفى الفيلاي مع الرئيس بورقيبة في جلسة عمل أثناء رحلة جوية



مصطفى الفيلاي أثناء مؤتمر لمكتب العمل الدولي



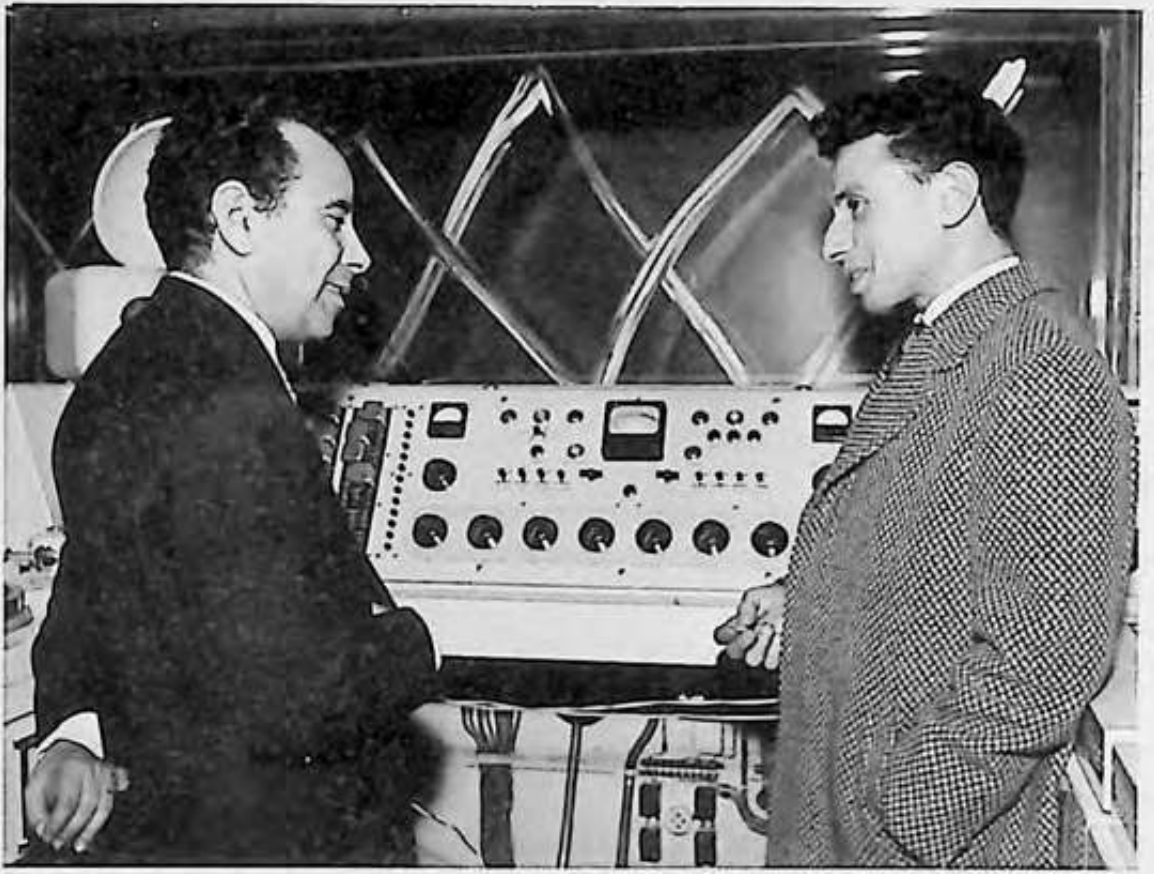
مصطفى الفيلاي في مهمة في إحدى البلدان الإفريقية



مصطفى الفيلاي مع كاتب الدولة للرئاسة الباهي الأدمم.
في الخلف عبد الله فرحات، مدير الديوان الرئاسي



مصطفى الفيلاي، الثاني على اليمين، في صورة تذكارية مع الأمين باي
بعد تشكيل أول حكومة إثر الاستقلال (15 أبريل 1956)



مصطفى الفيلالي في حوار مع أحد مهندسي الإذاعة (1956)



مصطفى الفيلالي في ملتقى بصفته رئيس اللجنة الاستشارية الدائمة للمغرب العربي



مصطفى الفيلاي في المدرسة الوطنية للمهندسين بتونس
أثناء إلقاء درس بحضور مختار العتيري، مدير المدرسة



مصطفى الفيلاي يستعدّ للمشاركة في نشاط المجتمع المدني سنة 2013

long silence, tu parlais souvent de la «responsabilité nationale» de l'UGTT et de ses devoirs à l'égard de la patrie.

Résidant depuis toujours à Radès, dont tu as été le maire pendant quelques années, ta blanche crinière, ta jovialité farceuse à l'égard des êtres et ton immanquable sortie quotidienne, pour acheter les journaux étaient devenues familières aux Radésiens.

Bien des mosquées, à travers Radès, gardent l'empreinte de ton énergie et de ton amour des choses bien faites. Sans oublier le projet de port de plaisance, dans un bras de mer avançant dans les terres. Projet avorté, mais encore présent dans les mémoires. Projet d'un homme qui a aimé la vie par-dessus tout...

D'ailleurs, revenons à la vie. Que te dire à la fin de ce texte? Sans doute te laisser, une dernière fois, déclamer ce vers de Prévert que j'ai entendu une bonne centaine de fois dans ta bouche: «notre père qui êtes aux cieux, restez-y et nous resterons sur la terre qui est parfois si jolie...»

permis d'opposer un front commun face à l'union Européenne! Le coût du «non-Maghreb» te préoccupait avec insistance. Mais, tout cela était placé au second plan par des dirigeants égocentriques, oublieux de leurs peuples et reconduisant sans relâche leurs divergences (au premier rang le problème du Sahara occidental).

Les projets, alors étudiés, (dont celui d'une compagnie aérienne transmagnhrébine) butaient sur le formalisme stérile des réunions, puis finissaient, oubliés au fond d'un tiroir. Impuissant face à un Maghreb arabe irréalisable, tu as toutefois écrit un livre, intitulé: «le Maghreb arabe et l'appel de l'avenir».

L'écriture est souvent la seule réponse à opposer à l'insignifiance des individus et l'absurdité du sort, tu ne le savais que trop bien...

Syndicaliste de la première heure, ami et compagnon de Farhat Hachad, tu as toujours cultivé une affectueuse inclination à l'égard de la centrale syndicale Même aux heures les plus sombres du pays, et jusqu'à ces dernières semaines, face à l'obstination acharnée et aveugle de certains dirigeants syndicalistes, tu réitérais ta confiance dans celle que tu appelas la plus grande force en Tunisie.

Mais l'inclination n'excluait pas la lucidité et tu as souvent déploré le manque de vision à long terme de ces dirigeants, leur intransigeance acharnée, allant contre l'intérêt du pays. Tu disais alors «Farhat n'aurait pas laissé faire ça»! C'est que durant la lutte de libération nationale, puis aux premières années de l'indépendance, l'UGTT avait toujours cultivé sa double vocation politique et sociale: la défense des syndicalistes et le bien du pays. Deux piliers d'un édifice qui, depuis sa création, en Janvier 1946, avait traversé bien des crises, et s'en était sorti, indemne. Que les deux piliers s'opposent, que le syndicat fasse acte de mutinerie, alors que le pays est exsangue, te paraissait inacceptable et jusqu'aux dernières semaines de ta vie, avant ton

Comme si, par delà l'événement, qui remuait les langues, tu voyais plus loin, joignant le présent à un passé que tu avais, en partie, façonné avec ceux que tu appelais avec tendresse «les bons camarades»... et des camarades il y'en avait! De Salah Guermadi, à Farhat Hached, en passant par Mahmoud Messaadi, Hatem El Mekki, Ahmed Ben Salah et tant d'autres... Tu aimais tes amis et ils te le rendaient bien, du moins la plupart...

Armé de ton amour des mots, tu as arpenté, ta vie durant, des chemins pluriels. La littérature était pour toi une compagne, surgie lors de la prime jeunesse, éteinte dans le feu de l'action, puis revenue te hanter à l'âge où le temps devient long. De là ont surgi des recueils de nouvelles, mêlant l'amour de ton «Nasrallah» natal, à des considérations facétieuses où le travail de pensée n'était jamais loin. Ce Nasrallah dont tu as été maire pendant plusieurs années, rognant sur tes dimanches pour t'y rendre. Le village te doit l'érection d'un lycée, d'une mosquée, d'un dispensaire. Mais la misère humaine y réside, encore et toujours, avec une constance qui dépasse les plus grandes énergies.

Ton amour des mots, s'alliait à une rigueur de pensée et une capacité à réunir les êtres, autour d'un projet novateur. Epris de sciences sociales, tu as fondé en 1962 un centre d'études et de recherches en sciences sociales, y intégrant des personnalités tels Mahmoud Seklani, Habib Attia, Chedli Ayari et d'autres. Ainsi, est né CERES (petit clin d'œil à ton ami de toujours Mohamed Ben Ismail). Très vite, CERES s'est distingué par des publications de qualité, en histoire, démographie, économie...

Après un passage de quelques années au Bureau International du Travail, passage dont a accouché un ouvrage de 500 pages, appelé «El Amal», te voilà attelé à une autre entreprise, aussi ambitieuse qu'incertaine: l'union du Maghreb arabe. Sillonnant les pays d'Afrique du nord, tu parlais souvent des similitudes entre Rabat, Tunis, Tripoli et Alger. Tant de similitudes entre les êtres et les modes de vie, tant d'intérêts communs qui auraient

C'est à l'aune de ce niveau là que, désormais, nous avons jugé et jugeons encore, les êtres et les choses. Dès lors, la déception devient une fidèle compagne. Il est vrai que ce niveau, sans doute trop lointain, jouant tout là-haut, par-dessus le mont Boukornine... Pourquoi naviguer si haut, objecterait la plupart? Ça donne le vertige...

L'amour des livres et des mots t'a accompagné, ta vie durant. C'est lui qui t'a mené de la littérature arabe, vers la sociologie, la philosophie, l'économie, grâce à ton don d'infatigable lecteur. Les ouvrages étaient placés en pagaille sur ton bureau, en un fouillis que toi seul savais identifier. Sur la table basse, s'entassaient les «petits nouveaux», ceux que tu avais acquis la veille en librairie, toujours la même librairie, et puis les autres, vieux amis un peu écornés, aux lignes abondamment soulignés de feutres de couleurs.

Tu y cherchais quelque phrase qui te revenait à l'esprit, une phrase justement, pour illustrer ton propos du jour. Et les propos il y en avait toujours à discuter, méditer, décortiquer, remettre sans lassitude sur le métier... un métier à vivre où les idées dansaient en tout beauté. Tu aimais parler et transmettre, en bon professeur que tu étais.

Tu aimais rire, aussi et les discussions étaient toujours mâtinées par ton humour léger, tes boutades, finissant, le plus souvent dans un rire que tu parvenais à communiquer aux poésies d'«El Maari».

Mustapha Filali au Parlement

Puis, comme par un passage obligé, le propos dérivait vers le pays, ses affaires, ses dirigeants, la dernière crise qui agitait l'opinion. A mes colères et mes indignations, tu opposais souvent des mots ouvrant sur un horizon plus large, une perspective où se profilait une pondération qui atténuait la fausseté des uns, le vice des autres.

Hommage à un citoyen de mon pays

Azza Filali

«Armé de ton amour des mots, tu as arpenté, ta vie durant, des chemins pluriels. La littérature était pour toi une compagne, surgie lors de la prime jeunesse, éteinte dans le feu de l'action, puis revenue te hanter à l'âge où le temps devient long».

Ce texte me coûte plus qu'aucun autre. Pourtant, il s'impose. La mémoire est aussi un devoir. Que m'importent ceux qui y verront un égocentrisme mal placé, ou un amour filial dégoulinant dans les médias!

C'est long, une vie. Instantané, une mort. Instantané et définitif. Mais c'est de vie que nous devons parler, que tu aimais parler. Laissons la mort de côté, elle habite tant de vivants que, même debout, explosant de bruit et de colères, ils sont déjà aux trois-quarts morts. Ces morts- vivants dont tu gratifiais le comportement de ton éternelle expression: «c'est idiot, voyons!».

Donc revenons à la vie, si tu veux bien. Celle côté cour et puis l'autre, que nous avons partagée, des années durant... L'amour des grands textes, où se mêlaient, sans gêne ni méfiance, Bachelard et Tarafa Ibn El Abd, El Ghazali et Noam Chomsky. Tous réunis, se reconnaissant entre eux par un seul label, celui de la qualité.

La belle qualité des êtres, celle qui les hisse au niveau où les hommes devraient se tenir... les hommes? Oui, les vrais et non ces pâles artefacts d'humains qui déambulent sur les trottoirs de l'existence. Le problème, vois-tu, c'est qu'une fois ce niveau identifié, la vie devient particulièrement difficile.

*Témoignage de la famille
du regretté*

Une voix sage, sincère et lucide

Saadeddine Zmerli

Mustapha Filali a récolté au cours de sa longue carrière tant de propos flatteurs à l'exemple d'une vie riche et altruiste, d'une voix sage lucide et sincère, d'un travailleur qui a consacré au travail l'essentiel de son temps, d'un patriote au comportement exemplaire ; et la liste à l'évidence n'est pas close. J'ai connu Mustapha Filali à Alger quand il a été investi d'une mission de directeur du bureau maghrébin de l'organisation internationale du travail (OIT) qui a duré cinq ans. C'était par l'entremise du Professeur Ali Okbi, installé à l'hôpital Mustapha depuis 1963, que j'ai connu Si Mustapha. Nous avons pris l'habitude de nous rencontrer régulièrement. Ces rencontres, toujours empreintes de convivialité, étaient attendues car Si Ali Okbi aimait se délecter de certains retours aux sources, lui qui avait quitté Kairouan dès 1936, et qui a trouvé en Mustapha Filali un joint utile et précieux pour se ressourcer sans se déplacer.

La Tunisie n'a pas su tirer profit des capacités de réflexion et d'action de cet homme patriote, droit et généreux. Dommage!

Admirateur d'Apollinaire, il aimait souvent déclamer le poème *Le Pont Mirabeau* pour se représenter son refrain: «*Vienne la nuit, sonne l'heure. Les jours s'en vont, je demeure*». Mustapha Filali se voulait l'éclaireur dans l'imaginaire collectif, et surtout dans la conscience des gouvernants.

Le 12 décembre 2018, il est admis dans une clinique transculturelle suite à un accident vasculaire cérébral. Son état de santé demeure critique malgré son transfert à l'hôpital militaire. Au soir du dimanche 20 janvier 2019, il est rappelé à Dieu, rendant l'âme sans pouvoir transmettre ses dernières volontés. Mais ses trois enfants, Azza, Aïcha et Mohamed Mehdi, sont assez éclairés sur les termes du testament de leur père, un testament inscrit dans la trajectoire exceptionnelle de cet homme qui a réuni le plus grand nombre de qualités humaines qu'espère posséder tout un chacun.

qui l'ont côtoyé peuvent témoigner: cette capacité d'écoute impressionne car, d'une part, elle recèle un besoin d'apprendre et de progresser et, d'autre part, dévoile son souci de mieux connaître autrui. Rationnel et pragmatique, il ne se laissait jamais abuser par les préjugés.

Et son sens du débat émanait chez lui de la nécessité d'apporter de la valeur sans dénigrer son contradicteur ni enfreindre les règles de bienséance, car dépourvu de toute volonté dominatrice. Bourguiba, lui-même, qui était loin d'être commode dans les discussions, se plaisait à débattre avec lui, se pliant parfois, et sans la moindre gêne, au statut de disciple. Ce qui le grandissait et obligeait en même temps Mustapha Filali à tenir le rang. Peut-être qu'un élément fortuit accentuait l'affection du Président pour son collaborateur: Bourguiba avait une taille supérieure à celle de Filali. Les proches du Palais peuvent dissenter là-dessus.

Homme de cœur, d'esprit et d'action, Mustapha Filali incarnait la simplicité, la générosité, l'humour. Gardant un cœur d'enfant, sa propension au rire est proverbiale, ne ratant pas la moindre occasion pour manifester son sens de la dérision ou même de l'autodérision. Son rire est franc sans être jamais réprimé. En se présentant systématiquement comme *Zlassi*, il déclinait ses racines pour fustiger de la plus élégante des manières ceux, et ils sont nombreux, qui ressentaient un malaise à évoquer leur origine modeste. Chez lui à Nasrallah, c'est une véritable icône, pour ses qualités intrinsèques, évidemment, mais également pour l'œuvre monumentale qu'il y a accomplie sans jamais en tirer gloire. Epris du sens du devoir, il estimait qu'il pouvait faire davantage sans la contrainte de l'éloignement. Un détail qui en dit long sur la valeur de l'homme: quand il était aux affaires, jamais il n'avait prononcé à l'adresse de Bourguiba *Fakhamet errais*, se limitant à la formule «M. Le Président». A plus forte raison, il n'a jamais prononcé la formule «le Combattant Suprême». Quel Tunisien, ayant exercé la politique après l'indépendance, pouvait réaliser meilleure prouesse?

fulgurante détérioration de l'environnement politique, au niveau des réseaux sociaux et par des manœuvres déloyales de certains partis. En outre, la mission elle-même, d'une durée de quelque onze mois, ne peut emballer un homme animé du travail à long terme, sans préjuger de la lourdeur de l'héritage qui avait suscité ses réserves et ses réactions ci-dessus énumérées. Mustapha Filali est donc resté fidèle à sa philosophie, à son éducation et à son ancrage rural que la vie citadine n'a guère perverti faisant partie de ceux qui cherchent la lumière pour mieux voir, non pour briller. C'est ainsi qu'il est demeuré toute sa vie un homme simple, humble et, surtout, disponible et accessible.

L'action, autrement

En mars 2014, refusant la fatalité et toute forme d'abandon ou de démission, il ouvre un nouveau chantier en convoquant chez lui une brochette d'amis de diverses appartenances professionnelles et intellectuelles pour plancher sur un thème qui lui est cher: le génie du travail. A l'évidence, c'est la détérioration de cette valeur qui lui inspire cette dernière action qui, accapare dès lors l'essentiel de son temps et de son énergie. Le 8 mai 2014, il publie à Assabah sa vision du Travail et un protocole complet pour le réhabiliter auprès des Tunisiens à travers des mécanismes pédagogiques et réglementaires ainsi que des organes à créer. L'âge aidant, et ne prenant plus le risque de conduire, il se résout à aménager ses mouvements, accordant à la lecture le plus clair de son temps.

Ayant vécu au milieu des livres Mustapha Filali est demeuré avide d'apprentissage, dévorant tous les titres qui requéraient son intérêt. Sa capacité à lire est phénoménale et explique son érudition, ainsi que son talent d'écrivain. En même temps, sa capacité d'écoute lui permettait d'accorder toute sa disponibilité à un compagnon ou à un orateur pertinent. Mais dès qu'une discussion est engagée avec lui, on découvre un esprit vif, doté d'une culture multidisciplinaire qui force le respect. Ceux

ses concitoyens sur les conditions et les instruments du salut. Citant souvent Chatibi, l'un des quatre grands imams sunnites, il s'inspire de son commandement que l'homme doit constamment protéger les cinq globalités: 1- le soi (l'âme); 2- la religion; 3- le cerveau (la raison); 4- le patrimoine; 5- la réputation:

الكليات الخمس: حفظ النفس والدين والعقل والمال والعرض

Comme il lui plaît d'évoquer Mawardi, l'un des oulémas chaféites, qui subordonne le bonheur collectif à six conditions concomitantes: une religion observée, un gouvernant (sultan) imposant, une justice pour tous, une sécurité ambiante, un bien suffisant et un espoir vaste:

دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن سابغ ورزق بار وأمل فسيح

L'ancrage arabe est très fort chez un croyant authentique qui se présente également comme un chantre de la modernité pour incarner l'ouverture, cultivée depuis l'enfance grâce à l'influence de son oncle, de ses maîtres à Sadiki, notamment Ali Belhouane, à la Sorbonne et au Collège de France qu'il fréquentait en tant qu'auditeur libre. C'est suffisant pour qu'il clame aujourd'hui haut et fort: «*Cessons de nous entre-tuer. La discorde peut condamner le pays ainsi que plusieurs générations. La Tunisie est une terre de tolérance et d'hospitalité. Musulmans et non musulmans ont toujours cohabité en totale intelligence dans la concorde*». Chercher à rompre cet équilibre revient selon lui à pervertir l'histoire et à souiller un pays qui a traversé et charrié trois mille ans de civilisation et qui ne mérite pas de se retrouver confronté à des écueils au dessus de ses forces.

En janvier 2014, le blocage politique hante la classe dirigeante et l'opposition. On cherche désespérément un profil pour succéder au chef du gouvernement Ali Laarayedh comme convenu par le Dialogue national de l'été 2013. Le choix, quasi unanime, se porte sur Mustapha Filali qui, à l'usure, se résigne par patriotisme. Il a été donc, pendant quelques heures, le chef du gouvernement de transition. Subitement, il se rétracte, suite à la

Dans la foulée, il contribue à la détente des travaux de la Constituante par une proposition qui fera du chemin: la constitution d'une commission paritaire pour dénouer les litiges nés de l'élaboration du projet de Constitution, d'autant qu'il a assisté à une plénière houleuse qui ne pouvait le laisser indifférent.

Mais un autre chantier requiert son intérêt: quel mode de société convient pour la Tunisie au vu des derniers développements de tout ordre? En constituant un groupe de penseurs – baptisé Al Qandil – qui s'attelle à la tâche d'ébaucher un projet d'avenir pour le pays, il entend livrer un combat d'une autre portée dont les dividendes doivent dépendre de l'écoute et de l'humilité de tous. L'assassinat de Mohamed Brahmi, le 25 juillet 2013, met fin à cette action. Mustapha Filali est, de l'avis de tous, la voix la plus sage qui unit la lucidité, la sincérité, le détachement et le désintéressement. En tout, il se contente de s'acquitter de ses devoirs, convaincu qu'*«entre le passé où il y a notre mémoire et le futur où réside notre espoir, il y a le présent où il y a nos devoirs.»*

Mustapha Filali, en homme déterminé, se consacrera jusqu'à son dernier souffle à servir. Il ne peut concevoir la vie que sous l'angle de l'utilité pour autrui. Ses réalisations à Nasrallah et à Radès, pour ne citer que les fiefs qui ont abrité sa vie et auxquels il n'a cessé de témoigner de la gratitude, y ayant été maire pour donner toute la mesure de sa sensibilité et de son dévouement. Depuis janvier 2011, il est constamment sollicité par les amis, les médias et la société civile pour mettre son expérience et sa lucidité au service de la cause nationale. Son domicile est devenu un petit pèlerinage pour les amis lesquels peuvent avouer se sentir plus intelligents après sa rencontre.

S'appropriant les frustrations et les souffrances de tous les Tunisiens, il se déploie sans cesse pour les apaiser, en s'efforçant d'évaluer le principal, l'accessoire et le futile pour mieux éclairer

rappelant le devoir d'agir. A croire qu'il intentait invariablement à la société civile et au pouvoir public un procès pour non-assistance à nation en danger. En homme imprégné de la raison d'Etat au vu d'une longue expérience de la vie et de la chose publique - plus de 70 ans -, il ne pouvait demeurer indifférent à la dégradation d'une situation caractérisée par la cacophonie et la suprématie de la liberté au détriment de la responsabilité. Or, la gravité de la situation avait rendu impérieuse la manifestation d'une voix sage et écoutée pouvant faire l'unanimité ou du moins ne pâtissant d'une quelconque réserve politique ou éthique. Seul Mustapha Filali semblait être cette voix, d'autant qu'il ne porte aucune casquette partisane malgré les multiples sollicitations qu'il avait reçues. Le vibrant appel qu'il a lancé, ce 16 mai 2013, pour un nouveau départ en direction d'une paix des braves construite sur un pacte national et un projet de développement régional aux contours précisés constituait une contribution précieuse pour sortir de ce marasme qui évoluait au gré des divergences politiques, notamment celles ayant trait à la Constitution et également eu égard au déferlement salafiste très préoccupant. Une intervention qui impressionna tout le monde sans toutefois connaître de suite malgré la présence de Moncef Marzouki et de Rached Ghannouchi, etc.

Ce dernier aura plus tard le privilège de recevoir une lettre ouverte (*C'est à vous, Cheikh*) sur les colonnes d'Achourouk du 28 juin 2013, où Mustapha Filali le renvoie à ses chères études, en puisant dans le référentiel présumé du leader d'Ennahdha, le Coran et la Sunna, les arguments pour mettre à nu les choix et pratiques conduisant *a priori* à l'impasse et à la discorde. Ayant été l'instigateur, lors des années 1970, d'une initiative portant sur le Réveil Islamique, avec la participation de Hassen Tourabi et de Rached Ghannouchi lui-même, Mustapha Filali marque cette fois sa distance avec le leader nahdhaoui, comme pour se dédouaner de son action candide.

véritable tribune officielle depuis l'indépendance où chacun peut disposer de sa liberté sans la moindre crainte. Il se contentera de vivre à distance cette expérience avec l'espoir qu'elle servira à baliser la voie de la démocratie. Son action s'étend au domaine associatif et culturel sans infléchir son programme habituel fondé sur la lecture et l'écriture. Il est sollicité par les médias, les associations et des hommes politiques. Il marque néanmoins sa distance d'autant qu'aucune formation politique ne répondait à ses exigences.

Après les élections du 23 octobre 2011, l'équilibre des forces bascule dangereusement en faveur de la rue. La menace lui inspire une chronique très chargée: *Y a-t-il encore dans le pays un Etat?* publiée par Assabah le 31 mai 2012. Il y développe, faits à l'appui, l'inquiétante tendance à la déliquescence de l'Etat, tirant la sonnette d'alarme pour mettre les gouvernants devant leur responsabilité historique. L'inquiétude croît à mesure que se multiplient les traversées clandestines vers l'Europe, synonyme de désespoir. Il reprend la plume pour fustiger à Assabah le 5 septembre 2012 (*les embarcations de la mort*), les pouvoirs publics pour leur passivité, à la limite de la complaisance, voire de la complicité, tant le fléau est devenu flagrant et monstrueux. D'autre part, le projet de loi visant la protection de la Révolution l'indigne. Il dresse un réquisitoire sévère mettant en garde contre les menaces que pourrait induire ce projet de loi qualifié à juste titre *La Loi de la Sédition* (Le Maghreb - version arabe-, 4 décembre 2012). Il rejoint ainsi l'analyse développée sept ans plus tôt par Hélé Béji dans son ouvrage *Une force qui demeure*: «C'est une société bien inhumaine que celle qui cultive l'amalgame, qui oublie l'humain pour le générique et englobe la moitié de l'humanité dans le cycle de sa vendetta».

Devenu prolifique par la force de l'habitude et la richesse du répertoire intellectuel, il présente sa vision lors du second acte du débat national organisé par l'UGTT. Il monte même au créneau en mettant les uns et les autres devant leurs responsabilités, leur

expérience l'édifie sur le potentiel de la région, mais également sur les occasions manquées en raison des blocages politiques qui affligent la région. Mustapha Filali en parlera avec amertume lors du 17ème anniversaire de l'UMA.

Le 7 novembre 1987, il vit une sensation étrange: en tant que député, il doit accepter le nouveau président, voire le soutenir, sans préjuger de la capacité de Ben Ali à s'élever à la hauteur de la fonction. Le naufrage de Bourguiba l'écoeure sans le surprendre ; il ne peut s'empêcher de conclure que *«la politique est cruelle: elle ne fait grâce à personne, même pas à ses enfants gâtés»*. (Françoise Giroud)

La Révolution ou la seconde vie

Après deux coups du sort - le décès de sa fille, en 1995, puis celui de son épouse, en 2009 -, Mustapha Filali retrouve une autre vie à la faveur de la Révolution qui ne le surprend que par sa vitesse. Dès lors, il occupe sa place dans l'espace public jusque-là verrouillé et réservé aux thuriféraires. Ses prestations à la télévision le révèlent grâce à sa sagesse et sa perspicacité. Il souffle l'idée d'une toilette à apporter à la Constitution pour installer immédiatement le pays dans la stabilité. Il se retrouve même embarqué dans l'initiative de ses amis Ahmed Ben Salah et Ahmed Mestiri pour constituer un Conseil de la République qui doit obtenir l'adhésion de l'Armée pour aboutir. L'initiative a priori noble et pure s'avérera candide et le projet, annoncé publiquement, est avorté par des réticences occultes, l'influence des personnes exclues dans cette démarche ayant sans doute prévalu.

Le 15 mars, Mustapha Filali obtient une compensation symbolique: il se retrouve en tête de liste de la Haute Instance pour la réalisation des objectifs de la révolution, de la réforme politique et de la transition démocratique. Mais sa déception étant, il n'assiste à aucune séance de ladite instance d'autant qu'il prévoit des conclaves houleuses puisque c'est la première

ont dans leur grande majorité abandonné la liberté d'esprit au profit de la soumission au Parti. Pour sa part, il ne songe pas un moment à céder sur les principes, méprisant les thuriféraires, les hypocrites et les opportunistes, comme le montre la croustillante chronique figurant dans son livre *Maoued el Inchirah*, où il relate les péripéties de la transition post coloniale. C'est que l'homme affirme sa fidélité à la nation sans manquer de loyauté envers Bourguiba. Il a le sentiment d'être un homme seul mais, en sauvant son âme, il se prémunit contre la servitude.

L'Organisation Internationale du Travail, en 1967, lui offre l'opportunité de vivre une nouvelle expérience. Pendant cinq ans, il apprécie le travail qui le mène d'Alger à Genève, à travers ses domaines de prédilection, tout en découvrant de nouveaux horizons. A Alger, il se lie d'amitié avec deux Tunisiens de marque: les Professeurs en médecine Ali Okbi et Saadeddine Zmerli. Il revient en Tunisie lorsque Bourguiba lui confie la direction du Parti, un an et demi après avoir jeté en prison son ami Ahmed Ben Salah. Mustapha Filali vit un véritable dilemme, intercédant même auprès de Bourguiba pour gracier son ancien bras droit. Peine perdue: le président lui sort un argument extra politique qui le laisse cloué sur place.

Au PSD, il doit gérer les dégâts collatéraux du premier Congrès de Monastir (11-15 octobre 1971). Durant quinze mois, il vit des situations et des scènes qui le persuadent de l'impossibilité d'instaurer alors la démocratie en Tunisie; ni Bourguiba ni les membres du Bureau politique ne sont enclins à concéder ni les droits civiques ni les libertés publiques. En quittant ses fonctions au PSD, le 31 décembre 1972, il a le sentiment de se défaire d'un fardeau lourd et rebelle à la raison politique.

Sa carrière se poursuit à l'échelle maghrébine en tant que représentant de la Tunisie au sein de la Commission Permanente Consultative du Maghreb dont il a été élu président de 1973 à 1989, prélude de la création de l'UMA, en 1989. Cette

stratégie, des moyens et de la patience. Bientôt, il doit suppléer le départ précipité de Béchir Ben Yahmed de l'Information.

Cette nouvelle fonction le mettra devant des situations autrement délicates en raison des motivations du Président dans son ascension politique et des provocations de la presse internationale. Quant à la presse locale, elle ne présente guère de menaces majeures. Dans ce contexte, Mustapha Filali doit trouver le bon équilibre et gérer les humeurs de Bourguiba autant soucieux de son image que de son autorité. Cela doit durer un an. En présentant sa démission, il tente de sauver son amour propre sans signifier au Président la moindre insubordination. Bourguiba en tire une indication précise: Filali n'est pas un inconditionnel, et ne peut donc constituer une arme dans ses futurs combats politiques qui se profilent. Ce dernier se retrouve alors en charge du Domaine de l'Etat au premier Ministère, à la faveur de l'expérience acquise à l'Agriculture. C'est sans doute la plus difficile mission à laquelle un responsable se trouve confronté: conjuguer la récupération de plus d'un million d'hectares du patrimoine foncier spolié, avec l'impératif de sauvegarder le potentiel de production agricole. C'est une bonne préparation pour une fonction nouvellement créée: la Banque coopérative (1961-62). Mais c'est ensuite qu'il doit durer dans une fonction qui va le plonger plus profondément dans la réalité du pays: la direction du Centre des études économiques et sociales à l'Université de Tunis (Cérès). Pendant cinq ans, il dirige et côtoie une pléiade de chercheurs et d'universitaires aux prises avec les statistiques, les tendances économiques, les mœurs et les évolutions imprévisibles du contexte. Au même moment son compagnon à Paris, à l'UGTT et au gouvernement, Ahmed Ben Salah, se déploie pour relever un défi improbable: ancrer le système coopératif en Tunisie. Mais il affectionne le combat contre le scepticisme de la réflexion par l'optimisme de l'action.

A l'Assemblée nationale où il siège depuis 1956, il a parfois le sentiment de ramer à contre-courant tellement les élus du peuple

disposer pour honorer la mémoire de son ami. A l'UGTT, il côtoie des hommes de qualité: Mahmoud Mesaadi, Lamine Chebbi, Ezzeddine Abassi, Mahmoud Khiari et surtout son compagnon Ahmed Ben Salah, devenu l'homme fort de la Centrale syndicale en tant que secrétaire général. Au Congrès du Parti destourien, en novembre 1955, quand, à la faveur d'une confusion, la présentation du programme économique lui échoit eu égard à sa qualité de président de la commission des questions économiques et sociales du Congrès. Réalisant qu'il a un grand rendez-vous avec l'Histoire, il passe une nuit blanche pour structurer son intervention car certains documents se sont volatilisés. Mais à la tribune, il simule l'improvisation, impressionnant ainsi l'auditoire et surtout Habib Bourguiba. Six semaines plus tard, il est nommé Directeur de la radio nationale, là où il avait connu ses débuts professionnels. Cette fois, c'est un test grandeur nature qui va révéler son talent et son sens politique dans une conjoncture marquée par les négociations menant à l'indépendance.

Bonjour la République

Le 15 avril 1956, Mustapha Filali figure très naturellement dans le premier gouvernement de la Tunisie indépendante. Pressenti d'abord aux Finances, il atterrit à l'Agriculture, Bourguiba l'ayant nommé à ce poste en raison de son ancrage régional, tout en appréciant sa culture et sa formation qui peuvent être d'un grand secours aux moments difficiles. De Gaulle disait à juste titre: *«Il y a des problèmes qu'on résout grâce à la culture générale»*. Le jeune ministre est confronté d'emblée avec une invasion catastrophique des sauterelles. La protection du patrimoine végétal contre les acridiens s'organise dans des conditions de sévère pénurie financière. Filali fait également face à la mainmise des colons, aux problèmes de financement, d'exploitation, de distribution et de modernisation, en plus de l'ampleur du chômage. Vaste programme qui nécessite une

plaire aux Français, réduisant ainsi à deux ans la carrière du journaliste en herbe. Douze ans plus tard, il retournera à la Radio nationale en tant que Directeur.

Le mariage, en 1944, dans l'intimité et l'austérité, est son grand premier événement existentiel avant de partir, en 1946, à Paris où il achève en deux ans ce qui requiert habituellement quatre années d'études: la licence en Lettres arabes à la Sorbonne. Au départ, son choix portait sur le Droit, mais son professeur Mahmoud Messaadi, convaincu de la maîtrise de son élève de la littérature, recommande l'autre filière.

Avide d'apprentissage, il assiste aux joutes culturelles dans le quartier latin où se côtoient le Collège de France, la Sorbonne, de nombreuses bibliothèques publiques, plusieurs cinémas d'art et d'essai, des théâtres: autant d'institutions qui éveillent le jeune étudiant à la grandeur de la France. C'est alors qu'il fait la connaissance à Pau du plus prestigieux des Tunisiens, Moncef Bey, destitué en 1943 et placé en résidence surveillée, auquel il rend visite en compagnie d'Ahmed Ben Salah et de Mahmoud Ben Naceur, étudiant en médecine. Il prend la mesure de l'homme et saisit la réalité tunisienne dans sa portée véritable. Il découvre aussi son patriotisme et sa dignité. Cet épisode le marquera toute sa vie.

Le retour en Tunisie le replonge dans l'amère réalité: la France qui a suscité son admiration et parachevé sa formation est le colonisateur qui ne concède rien à la souveraineté du Bey ou du gouvernement. Il retrouve Tunis en tant que professeur d'arabe au lycée Carnot, et choisit le combat politique au sein du syndicat. Sa rencontre avec Farhat Hached génère une amitié profonde. Le 5 décembre 1952, c'est chez lui, à Radès, que le grand syndicaliste dépose son fils Noureddine avant le rendez-vous fatidique, quinze minutes plus tard, le reste de sa famille étant déjà à Sousse. Le drame aiguise chez Mustapha Filali l'esprit de revanche avec tous les moyens dont il peut

Une vie riche au service de la nation

Mohamed Kilani

La Tunisie est une terre riche en civilisations et en hommes marquants: de Hannibal à Magon, d'Ibn Khaldoun à Chebbi, de Khereddine à Haddad, de Thaalbi à Bourguiba, de Hammi à Hached, de Ben Achour à Talbi, etc.

Mustapha Filali est de ceux qui ont honoré cette lignée. Ce faisant, il a œuvré, sa vie durant, pour que l'élévation de l'esprit, la noblesse de l'âme et la portée de l'action se conjuguent au profit du plus grand nombre de ses compatriotes, et au service de l'humanité tout entière tant il est épris d'universalité comme le prouve sa double culture.

Mustapha Filali est né le 5 juillet 1921 à Adhla, un village situé à dix kilomètres de Sidi Ali Ben Nasrallah. Après le Kouttab où exerçait son grand-père maternel et un bref passage à l'école primaire locale, il poursuit sa scolarité au collège Sadiki grâce à la bienveillante tutelle de son oncle maternel Mohamed Foudhaili, magistrat à la Driba de Tunis. Le secondaire lui ouvre des horizons inespérés grâce à la consistance des programmes et à la valeur des professeurs. Ali Belhaouane et Mahmoud Messaadi l'influencent énormément et l'imprègnent dans son rapport à lui-même, à la vie et au monde. Mais la guerre interrompt ses études en 1940, baccalauréat en main. Son père le promet au corps des khalifats (sous-préfets), mais la fonction n'attire pas l'homme qui dédaigne cette notabilité servile. Il tente une traversée clandestine vers l'Europe mais sans succès. Un premier emploi à la radio, en 1943, lui permet de parcourir le pays en tant que reporter mais un sous-préfet malveillant, officiant à Nasrallah même, lui cause du tort en lui collant un délit imaginaire pour

P. S.: «Selon la doctrine indienne, la mort, en nous touchant, ne détruit pas ; elle nous rend seulement invisible». (Chateaubriand)

Jean d'Ormesson, observe, lui, dans *Un jour je m'en irai sans avoir tout dit*: «Je crois que la mort est le but et le sommet d'une vie dont elle marque le retour à l'éternité primitive», et: «Je crois que la mort est une victoire camouflée en défaite et le seuil à franchir pour entrer dans une justice et une vérité dont nous ne poursuivons ici-bas que les ombres».

en sociologie, en linguistique, en géographie, en histoire, et dont il me transmettra l'héritage en 1968. Aux fonctions de Directeur du Parti au pouvoir, le Parti Socialiste Destourien qu'il sera appelé à assumer, début des années 1970, et auquel Mustapha apportera ce dont il avait grandement besoin: un militantisme destourien vertueux, une organisation rationnelle du travail. A l'engagement et au dévouement dont il fera preuve dans l'accomplissement de la mission qui lui sera confiée, au début de la décennie 1970, pour diriger le Comité Consultatif Permanent du Maghreb chargé de préparer et d'accélérer le processus d'intégration maghrébine – un combat qui jalonna toutes les phases de sa vie et qu'il enrichira par des écrits et des réflexions profondes sur le concept du "coût du non-Maghreb". Last but not least, à l'expression de ses dons d'écrivain à travers une production littéraire dense, éclectique, où la réalité, la fiction, l'imagination, l'humour s'entremêlaient avec bonheur. J'ai eu le privilège de préfacer un des ouvrages de Mustapha: "la Société du travail" (2006). Aux côtés d'une correspondance dense échangée entre nous deux depuis les années 1960, que je conserve jalousement, cette préface a donné l'occasion d'un débat public entre Mustapha et moi-même dont je garde encore les traces vivantes dans ma mémoire.

Tous ces moments et toutes ces pérégrinations, qui ont balisé la vie et l'œuvre de Mustapha Filali se reconnaîtront à jamais comme le produit d'un même souffle: celui d'un homme bien, un homme de bien, volontariste, profondément vertueux, honnête avec lui-même et avec autrui, habité par cette recherche ininterrompue de ce qui devrait concilier authenticité et modernité, morale et liberté, fondements de cette Tunisie que Mustapha n'aura jamais cessé de rêver, de fantasmer même.

Mustapha Filali, désormais invisible, certes. Plus douloureuse pour les siens, ses amis, et son pays bien-aimé, la Tunisie, sera son absence à jamais. Une absence que seule sa présence à jamais dans nos mémoires pourrait tempérer.

Aucun des trois grands moments vécus par la Tunisie indépendante n'aura réussi cette synergie. Ni La République néo-patrimoniale bourguibienne. Ni la République dite du "Changement", celle de la "démocrature", pour emprunter un vocable proposé par Hachemi Alaya. Ni la République dite "révolutionnaire", toujours engluée dans les miasmes d'une transition qui ne finit pas de transiter vers une démocratie apaisée et pleinement assumée. Face à cette trahison du nouveau compromis républicain revendiqué mais violé, Mustapha Filali, y compris dans les épisodes où il participait du pouvoir en place, n'aura jamais cessé d'exprimer, à sa manière, son profond mal-être.

Le combat pour les valeurs mené par Mustapha a traversé avec force, et au moyen d'un verbe et d'une écriture où l'éloquence, l'élégance, l'esthétique, la transparence, la clarté dans les deux langues, d'Al Moqqafâa et de Voltaire, ont toujours fait excellent ménage, a empreint de bout en bout l'œuvre multi-facettes de Filali.

De son moment pédagogique d'enseignant émérite de la langue et de la philosophie arabes. A ses combats syndicalistes menés aux côtés de Farhat Hached et de ses successeurs. A ses éminentes contributions au Rapport économique et social historique de l'UGTT de l'année 1955, qui constituera les prolégomènes de la toute première stratégie de développement national tunisien à l'aube de la décennie 1960. A sa prise en mains, juste après notre accès à la souveraineté, des destinées de l'Agriculture tunisienne, symbole du néo-colonialisme prédateur que la Tunisie subissait depuis l'établissement du Protectorat-une prise en mains qui se résoudra par une réforme disruptive majeure: celle de la décolonisation et de l'évacuation agricole en Mai 1964. A son apport dans la mise en place du premier noyau de la recherche économique et sociale en Tunisie, via la création du Centre d'Etudes Economiques et Sociales qui réunira les pionniers de la recherche universitaire tunisiens en économie,

Mustapha Filali...

Un absent à jamais, mais un présent pour toujours dans notre mémoire

Chedli Ayari

«La mort, en nous touchant, ne détruit pas; elle nous rend seulement invisible» Je ne partagerais nécessairement pas ce propos puisé dans l'immense trésor de la sagesse indienne. Non en raison seulement de sa contradiction avec la doxa islamique sur la mort, telle que codifiée dans notre Livre Saint, le Coran. Mais en raison de la réduction de la mort à la seule évidence de l'invisibilité. En tout cas, si la disparition de Mustapha Filali le rend désormais invisible, elle le rend, plus cruellement encore, à jamais absent.

Pour les siens, Azza, Aïcha, Mohammed, avant toutes choses. Pour nous autres: ses amis, ses compagnons, ses admirateurs, ses disciples, parmi lesquels Mustapha m'a toujours compté.

Absence cruelle, en effet. De celui qui n'aura jamais cessé de nous rappeler, à travers ses dires, ses écrits, et ses combats, les valeurs d'humanité, de probité intellectuelle, d'abnégation, de tolérance, de don de soi, mais non de l'effacement de soi. De celui qui aura symbolisé, plus que nous tous, mieux que nous tous, cette quête ininterrompue, parce que toujours fuyante, pour une synergie entre les trois grands fondements de la Tunisie indépendante et républicaine. La reconnaissance et l'assimilation de notre authenticité plurielle – son arabité - son islamité - sa maghrebinité-, son africanité - sa méditerranéinité. Le respect des droits de l'homme et des libertés citoyennes. L'ouverture sur une modernité et une mondialité pleinement assumées.

Témoignages

L'œuvre

Mustapha Filali a toujours dégagé beaucoup de temps pour lire et écrire. Sa disponibilité pour l'écriture est devenue totale depuis qu'il a quitté son dernier emploi en 1992. Il a eu plusieurs contributions dans des publications, dont celle du CERES dont il a été le premier directeur en 1962. Il est auteur également de plusieurs livres dont *L'Islam et le nouvel ordre économique international* et *Le Maghreb Arabe: l'appel du futur*. Il entame sa première expérience dans le roman en 2004 avec la publication de *Manaa*. Il enchaîne de manière magistrale avec une œuvre monumentale (600 pages) publiée en 2006 par le Centre d'études de l'Union arabe de Beyrouth sous le titre: *La société du Travail*. A quatre-vingt-cinq ans, il présente une analyse de cet univers qui concentre tout le fonctionnement social avec des appels sous-jacents pour une prise de conscience des vertus du travail, le passage obligé pour la dignité et le développement. *Maoued el Inchirah*, publié en 2010, est un recueil de péripéties vécues par l'auteur, chargées d'enseignements et dont l'intérêt réside dans le souci de les restituer... pour l'histoire. Un autre roman est en souffrance: sous le titre *Aicha Al Baya*, il a été écrit après la Révolution et inspiré d'un contexte social et politique pourtant peu propice à l'inspiration romanesque.

Mustapha Filali a été membre du Conseil d'Administration du Centre des études de l'Union arabe - Beyrouth. En 2013, il a été désigné membre de l'Académie tunisienne des sciences, des lettres et des arts *Beit al-Hikma*, sans compter plusieurs participations à l'échelle arabe et islamique.

La carrière

- 1943 - 45:** Reporter à la radio tunisienne,
- 1948 - 55:** Professeur d'arabe au lycée Carnot,
- 1956:** Directeur de la radio tunisienne,
- 1956 - 57:** Ministre de l'Agriculture,
- 1957 - 58:** Ministre de l'information,
- 1959 - 60:** Domaine de l'Etat,
- 1961 - 62:** Banque coopérative,
- 1962 - 67:** Centre d'Études et de Recherches Économiques et Sociales (CERES),
- 1967 - 71:** Bureau du BIT à Alger,
- 1971- 72:** Directeur du PSD
- 1973 - 89:** Commission Permanente consultative du Maghreb
- Membre du bureau exécutif de l'UGTT (1953 - 1955).
- Député à la Constituante de 1956 à 1959 (Circonscription de Kairouan - Zlass) puis à l'Assemblée nationale de 1959 à 1969, et de 1986 à 1989 (Kairouan).

Table des matières

La carrière..... 7

L'œuvre..... 8

Témoignages

Un absent à jamais, mais un présent pour toujours dans notre
mémoire 11

Chedly Ayari

Une vie riche au service de la nation 15

Mohamed Kilani

Une voix sage, sincère et lucide 28

Saadeddine Zmerli

Témoignage de la famille du regretté

Hommage à un citoyen de mon pays 31

Azza Filali

Mustapha Filali: 1921-2019 / Ouvrage collectif - Tunis: Académie tunisienne
des sciences, des lettres et des arts *Beit al-Hikma*, 2019 (Tunis :Imprimerie
Orbis) 78p, 22cm - Relié.
I.S.B.N: 978-9973-49-194-7

Il a été tiré de cet ouvrage 100 exemplaires
dans sa première édition

© Tous droits réservés à l'Académie tunisienne
des sciences, des lettres et des arts
Beit al-Hikma

Carthage, 2019

Mustapha Filali

5 juillet 1921 - 20 janvier 2019

**Académie tunisienne des sciences,
des lettres et des arts
*Beit al-Hikma***







Mustapha Filali

1921 - 2019



Académie tunisienne des sciences,
des lettres et des arts *Beit al-Hikma*

